

تعلم اللغة الأجنبية باعتبارها

نشاطاً اتصالياً عالمياً

Foreign language learning as global communicative practice

كلير كرامش وستيفن ل. ثورن

Claire Kramsch and Steven L. Thorne

ساعدت سهولة الوصول لمتحدثي اللغات الأجنبية وثقافتها، عن طريق أدوات الاتصال عبر الإنترنت، على تحويل تعلم اللغات الأجنبية من مجرد تدريب منعزل عن البيئة الفعلية لهذه اللغات، إلى استخدام حقيقي لها في سياق واقعي أصيل (انظر: Blyth 1998; Warschauer 1999; Warschauer and Kern 2000)، ورغم ذلك وجدنا من يقول إن نوع الاتصال الذي ينخرط فيه الطلاب عبر الشبكات الدولية كالشبكة العنكبوتية (الإنترنت) قد لا يفي بالأغراض التقليدية التي قام عليها تعلم اللغة الأجنبية. ففي حين استند المدخل إلى تدريس اللغة الاتصالي على تبادل المعلومات الحقيقية، وتنمية التفاهم المتبادل عبر الثقافات (انظر: Breen and Candlin 1980; Savignon 1983)، يتميز التواصل باستخدام الحاسب الآلي بعرض السمات الاجتماعية للمتحدث وذاته الفردية (انظر: Kramsch et al. 2000; Thorne 1999). ويقر كيرن Kern بوجود تواصل ينخرط فيه الطلاب عبر الإنترنت (2000: 255)، لكن

السؤال الذي يجب أن نطرحه هو: "هل أدى هذا الاتصال إلى أي تفاهم من نوع جديد؟"

يتناول الفصل الحالي بالدراسة دلالات استخدام تقنيات الاتصال العالمية في تدريس اللغات الأجنبية واستخدامها، حيث نستهل ذلك بعرض موجز لدور الاتصال في تدريس اللغة، وإمكانيات الاتصال عبر الشبكات العالمية، ثم نعرض بعد ذلك على دراسة استخدام نمطي الاتصال المتزامن synchronous واللامتزامن asynchronous بين متعلمي اللغة الفرنسية من الأمريكيين في الولايات المتحدة الأمريكية ومتعلمي الإنجليزية من الفرنسيين في فرنسا، ونختتم الفصل بتنفيذ الاتجاه القائل إن الاتصال القائم على الحاسب الآلي (CMC) computer-mediated communication يساعد المتعلمين على فهم الظروف الواقعية المحلية التي تستخدم فيها اللغة المراد تعلمها بشكل طبيعي، مما يمهّد الطريق لإيجاد أرضية عالمية مشتركة للتفاهم بين الثقافات.

تدريس اللغة التواصلية:

نقل المعلومات مقابل التواصل لبناء الثقة

Communicative language teaching: transmission of information versus ritual of engagement

احتل مفهوم "التفاوض من أجل الوصول للمعنى" مركزاً محورياً في برامج تدريس اللغة الأجنبية منذ سبعينيات القرن العشرين، حيث كثر الحديث عن كفاءة الاتصال التي عرفناها لأول مرة في كتابات سافنون (Savignon 1972)، وبرين وكاندلين (Breen and Candlin 1980) بأنها القدرة على "المشاركة في التفاوض أو التفاوض من أجل الوصول إلى المعاني والأفكار محل النقاش" (راجع: Breen and Candlin 1980: 92)، ثم قام كانالي وسوين (Canale and Swain 1980) بتحليل مكوناتها النحوية واللغوية الاجتماعية والإستراتيجية، وفي عام ١٩٨٣ قدم سافنون Savignon تعريفه للتفاوض

أو التحوار بأنه "عملية يتوسل فيها أحد أطراف الحوار بمصادر معرفية متعددة (مثل خبراته السابقة وسياق الحديث والطرف الآخر في الحوار) لتحقيق التفاهم بين أطراف الحوار"، ثم عرفها بيكا (Pica 1995: 200) بأنها "الحوارات التي يكتسب متعلمو اللغة فيها ومحاوورهم ما يقال من حيث أصواتها ومفرداتها وكذلك التراكيب والأبنية من أجل تذليل كل العقبات التي قد تعوق التفاهم المتبادل بينهم، وتحول دون حصول اتصال جيد بينهم"، وهذا التعريف الأخير يعطي دلالة على انتشار مفهوم التفاوض بين أوساط البحث الأكاديمي الأمريكي الخاص باكتساب اللغة الثانية، بل تعدى الجانب النظري إلى حيز التطبيق العملي، كما يدل على قيام برامج تدريس اللغة الثانية بأمريكا، وخاصة ما يتعلق بكفاءة الاتصال، على النظام النفعي السائد في قطاعات عدة من المجتمع الأمريكي القائم على ربط المعنى بالمعلومات، أي بما يكتسبه كل طرف من معلومات، وكذلك ربط التفاهم بالأبعاد اللغوية للحوار أو الكلام (تنظر: Scollon and Scollon 1995: 94).

ترجع تلك النظرة الأمريكية للاتصال، على أنه نقل للمعلومات من طرف لآخر وبالعكس، إلى إيمان الأمريكيين العميق بقوة العلم والتقنية، وقدرتهما الكبيرة على بناء جسور التواصل بين المتحاورين، مثلما تحقق ذلك على يد الرواد الأوائل الذين غزوا المجهول من اليابسة "بالتوجه غرباً" محققين بذلك تواصلاً بين أوروبا والعالم الجديد، أو بمد خطوط السكك الحديدية المعروفة "بخطوط المحيط الهادئ التي أسهمت بقدر كبير في تواصل الأفراد لمسافات شاسعة (انظر كاري 1988 Carey)، وتقوم هذه النظرة على فكرة فلسفية بسيطة مؤداها أن التواصل مع الآخرين المثقفين أمر محتمل الحدوث شريطة توافر حوار صادق قائم على الشفافية والحقيقة (انظر فوكو

19: 1971) Foucault بغرض التواصل وتبادل الأفكار (انظر هابرماس Habermas 1970، وانظر أيضاً نقد هايمز Hymes لطرح هابرماس 1987: 225).

لكن ينبغي علينا ألا ننسى النظرة الأخرى للاتصال القائمة على رغبة الفرد في التوحد مع مجتمع يشعر بالولاء والانتماء له، وهنا يصبح الاتصال نوعاً من الطقوس الموحدة لأفراد المجتمع، وهي تعرف بالتعاون والتكافل (انظر تانن 1984 Tannen) حيث تحتل الثقة في الآخر مكانة أعلى من الحاجة لنقل الحقائق لهذا الآخر، لذلك نجد أن الاتصال عبر الحواسب الآلية قد حل محل اللقاء التقليدي بين متحدثين ذوي مشارب متباينة سواء من الناحية القومية أو الثقافية من خلال ما يسمح به من الاتصال بين أفراد لهم من الاختلاف القومي والثقافي ما يكفي لإظهار هذا الجانب بشكل جلي في فضاء الإنترنت اللامحدود زمنياً a-historical cyberspace. كما أتاح هذا الاتصال التقني الحديث الفرصة لحل المشاكل التي نشأت عن الاصطدام بالقوالب القومية والثقافية للمتحدثين، ويحضرني هنا وصف عالم الاجتماع جيمس كاري (1988: 35 James Carey) لهذا النمط من الاتصال بأنه "اتصال يتخذ من اللغة أداة لتجسيد الأحداث الدرامية بين الأفراد ولإثبات أن الأفكار تعتمد في جوهرها على الموقف الذي ظهرت فيه وكذلك الظروف الاجتماعية المصاحبة لها، وأخيراً لإعطاء الجانب الرمزي من الحوار شيئاً من الثقة نتيجة اشتراك أطراف الحوار في هذا الجانب" لذلك يركز هذا الاتصال على مشاركة الخبرات والأفكار والقيم والمشاعر مفسحاً المجال أمام نظرة ما بعد الحداثة للاتصال باعتباره وسيلة تبادل للثقة بعد النظرة الحداثية للاتصال على أنه نقل لحقيقة ما انطلاقاً من الإيمان بأهمية بناء العلاقات الاجتماعية ليكتسب ثقة الآخرين فيه، أكثر من أهمية وصوله لكل الحقائق. وما زال تدريس اللغة الأجنبية الرسمي يفض الطرف عن كون الاتصال أحد الإجراءات المانحة للثقة، اللهم إلا فيما يتعلق بقواعد التأدب الاجتماعي

على الرغم من استخدام المتعلمين للغة الأجنبية كأداة لتبادل الخبرات لكن في سياق غير رسمي (انظر كرامش 1997، ورامبتن 1999). (Rampton 1999).

وفي مستهل القرن الحادي والعشرين، وضعت تقنيات الاتصال العالمية الجديدة، تحدياً أمام برامج تدريس اللغة الأجنبية في المؤسسات التعليمية بالولايات المتحدة الأمريكية بما أحدثته من تحول في مفهوم الفضاء الكوني الذي أصبح وسيطاً مثالياً يفتح فيه متحدثو اللغة الأصليون على المتحدثين غير الأصليين لها، فتمتد جسور التواصل بينهم من خلال شاشة الحاسب الآلي بشكل لا تحده حدود الزمان أو المكان أو القومية أو الهوية، وهو ما راق للكثيرين لاتساع رقعة حرية الاتصال بين عدد ضخم من الأفراد مجهولي الهوية وبسرعة كبيرة (انظر: Lanham 1994; Turkle 1995; Jones 1995; Herring 1996)، فأتيح بذلك فرص ذهبية لاستخدام اللغة الأجنبية على نطاق عالمي. لكن إلى أي مدى غير هذا الوسيط الجديد ظروف الاتصال وطبيعة استخدام اللغة (انظر لاتور 1999)؟ وما طبيعة الحوار السائد عبر الإنترنت؟ أهو حوار لنقل الحقائق أم لتبادل الثقة؟

تعلم اللغة والتقنية في سياق عالمي

Language learning and technology in a global context

غالباً ما توصف العولمة بأنها شبكة من العلاقات (مثلما يرى كاسيلز Castells 1996) مع اتفاق الكثيرين على أنها مصطلح شائك (انظر جيمسون Jameson وميوشي Miyoshi 1999، وجيدنز Giddens 2000، وهارفي Harvey 2000)، وتلك الشبكة التي تربط أعداداً غفيرة من الناس بعضهم ببعض تعمل على حصر كافة أنواع البضائع الرمزية والمادية على صعيد التجارة الاقتصادية، وتوزيعها في كافة أنحاء العالم، وتبادل الأنشطة الثقافية في صورها المختلفة كالموسيقى والرقص والأفلام السينمائية واللغة.

ولقد حلت تقنيات الاتصال الحديثة في الآونة الأخيرة كالإنترنت، والهواتف النقالة، وأجهزة الإشعار، والمساعدات الرقمية الشخصية PDAs محل آليات الاتصال التقليدية كالمفكرة، والملاحظات، والرسائل نظراً لتوفر هذه التقنيات الحديثة وشيوعها في كل مكان بالعالم؛ يراها الكل، ويسهل الحصول على معلومات عنها في أي قسم تقنيات بالصحف القومية والمحلية والتقارير الإخبارية على شاشة التلفزيون، وبالطبع من آلاف المواقع على شبكة الإنترنت التي تتحدث بشكل غير مباشر عن الوسائل التي تعين الفرد على الوصول إليها (أي للمواقع)، ولذلك لا نرى في الفصل بين شبكات الاتصال العالمية وظاهرة العولة أمراً محموداً، بل يجب تناولهما معاً، والنظر إليهما على أنهما مكملان أحدهما للآخر.

إلا أن شبكات الاتصال العالمية تنطوي على تناقض لتشجيعها على العزلة من خلال انخفاض فرص الاتصال المباشر وجهاً لوجه بين الأفراد، حيث تلعب شاشات الحاسب الآلي دور العازل، لكنها تقدم قناة للربط بين ملايين الناس وفرصاً للاحتكاك الاجتماعي وبناء التجمعات البشرية رغم جِدَّة أشكالها وحدثاتها. ولا يمكن لعاقِل في عصرنا هذا إنكار الوضع الحالي للاتصال عبر الإنترنت الذي أصبح شيئاً عادياً وجانباً أساسياً من أنشطة الاتصال على الصعيد الاجتماعي والأكاديمي والمهني. ولقد أوردت دراسة أن الطلاب الأمريكيين وجدوا في هذا النوع من الاتصال فرصاً ذهبية للدخول في علاقات مع غيرهم (انظر بوفوا 1998، Beauvois، وكيرن 1995، Kern، ولي 1998، Lee) مما يحتم علينا النظر لطرق الاتصال عبر الإنترنت، بنوعيه التزامني واللاتزامني، الذي حل محل وسائل التعليم المباشرة وجهاً لوجه في عدة مؤسسات تعليمية رسمية بالولايات المتحدة الأمريكية على أنها بيئات اجتماعية يطلق عليها كاسيلز (Castells 1996: 356) مصطلح "ثقافة محاكاة الواقع الافتراضي" culture of virtual reality،

وهي ثقافة التعايش مع البيئة الاجتماعية والمادية المحيطة لأنها تحافظ على خصوصية الفرد واتصاله بالآخرين في نفس الوقت، رغم وجود الفوارق الاجتماعية بشكل ملموس.

يرتبط استخدام الاتصال عبر الإنترنت في تعليم اللغة الأجنبية مباشرة بمدى الانتشار الهائل الذي حققه تعليم اللغة التواصلية، الذي ينادي بتطور اللغة من خلال الاتصال الاجتماعي بين المتعلمين، حيث يتيح استخدام اللغة عبر شبكات الاتصال فوائد عدة لا تتوافر في فصول تعلم اللغة الأجنبية داخل المدارس (انظر كونونلوس Cononelos و أوليفا 1993 Oliva، و ورشور 1996 Warschauer) نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر التفاعل المنتظم والاتصال المستمر بين متحاورين موجودين في أماكن مختلفة من العالم، وسهولة الوصول لخبراء التحدث باللغة المراد دراستها، وكذلك زيادة فرص التفاعل الثنائي بين الأفراد، وتنمية التجمعات الحوارية عبر الإنترنت (انظر ورشور 1998 Warschauer)، والنمو الشامل في إجمالي المنتج اللغوي لدى الطلاب (انظر كيرن 1995 Kern) من خلال انخراط الطلاب في نشاط كتابي تواصلية فيما بينهم، فيسمو تفكيرهم ومستوى إتقانهم لمهارة الكتابة داخل قاعة الدرس إلى صيغة أكثر تنظيماً من صيغ المعرفة (انظر: فيجلي 1992 Faigley، وداي 1992 Day و باتسون 1995 Batson، و بروس وآخرين 1993 Bruce et al.). لذلك نقول إن تقنية الشبكات ساعدت على إحداث نقلة تعليمية هامة من الافتراضات المعرفية القائمة على أن المعرفة والتعلم ظاهرتان تقتصران على عمل المخ البشري إلى تبني كثير من معلمي اللغة للمدخل السياقي الاجتماعي التفاعلي لتطوير اللغة والأنشطة المتعلقة بها (انظر: فيرارا وآخرين 1991 Ferrara et al.، وهويشر 1994 Hawisher، ونوبليت 1995 Noblitt، وأورتيجا 1997 Ortega، وكيرن 1998، 2000 Kern، وثورن 2000b Thorne).

يتضمن الاتصال عبر الإنترنت نوعي التفاعل المتزامن واللامتزامن، حيث يتطلب النوع الأول حضوراً آنياً للمتحدثين على شبكة الإنترنت متوسلين في ذلك ببرامج الاتصال كالمحادثة عبر الشبكة Internet Relay Chat و ICQ (وهي اختصار يعني "أنا أنشد الاتصال بك" I seek you)، وبيئات مختلفة تعتمد على الإنترنت، وبيئات متعددة المستخدمين، مما يتيح الفرصة لتفعيل دور الوسيط التقني في تنمية الأبعاد التفاعلية واللغوية لهذا الاتصال (انظر: ثورن 2000b) خلافاً لما هو عليه حال أدوات الاتصال اللامتزامن كالبريد الإلكتروني، ومنتديات المناقشة على هيئة رسائل تعتمد على مفاهيم الاتصال التقليدية (مثل فتح المنتدى أو البريد الإلكتروني وإغلاقه والإشارة الواضحة لنصوص سابقة)، ويمكنك الرجوع في هذا الصدد لكتاب هيرنج (Herring 1996) للوقوف على مزيد من التفاصيل بشأن "أسس الرسائل الإلكترونية". ولقد واكبت تقاليد كتابة الرسائل الإقبال الشديد على الاتصال عبر البريد الإلكتروني، ومن ذلك إدراج أجزاء من رسالة إلكترونية أو رسائل بأكملها في رد أحدهم على رسالة أخرى، كأسلوب يتيح قدراً كبيراً من الاتساق والتماسك في بنية الاتصال باستخدام تلك التقنية لتعين مستخدميها على تلك الطفرة الحادثة في الاتصال النصي الذي أتاحه البريد الإلكتروني. إلا أن الملاحظة الجديرة بالذكر هنا هي الخلط الحاصل في الأسلوب اللغوي المرتبط بالمواقف الاجتماعية المختلفة ما بين الاتصال المتزامن واللامتزامن، فنجد مثلاً في الاتصال اللامتزامن كمّاً كبيراً من الأساليب المكتوبة والمنطوقة منها ما يخص الرسائل الرسمية ومنها ما يخص المذكرات والمقالات في تقليد أعمى لنظيراتها المكتوبة على الورق، وعلى النقيض نجد في نفس النوع من الاتصال محاكاة افتراضية للحوارات الشفهية المؤكدة على دور التواصل اللغوي بهدف بناء الجسور phatic communion، أو هو أمر أكدّه الطلاب الأمريكيون المشاركون في

الدراسة الحالية حيث أكدوا استخدامهم للاتصال عبر الإنترنت ما يزيد على ساعتين يومياً لأغراض التواصل الاجتماعي واللغوي.

ننتقل الآن إلى دراسة حالات بعينها في استخدام آليات الاتصال عبر الإنترنت لتعليم اللغة الأجنبية، وهي أمثلة مستقاة من دراسة حالية على دارسي اللغة الأجنبية تتناول ربط طلاب في المرحلة الثانوية Lycee في فرنسا بنظراء لهم في المرحلة الدراسية بالولايات المتحدة الأمريكية تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشرة والعشرين، نستهل ذلك بتحليل نشاط عصف ذهني للطلاب في أول الفصل الدراسي في مارس عام ١٩٩٧ استخدم فيه ثلاثة طلاب أمريكيون يدرسون الفرنسية تقنيات الاتصال المتزامن عبر الإنترنت، أو ما يسمى بغرف المحادثة لمناقشة قضايا عدة تتعلق بتواصلهم عبر البريد الإلكتروني في المستقبل مع أقرانهم الفرنسيين بمدرسة فيرناند ليجي الثانوية بمدينة إيفري Ivry.

الاتصال المتزامن عبر الإنترنت بين الطلاب الأمريكيين:

البحث عن قاسم مشترك

Synchronous CmC among Americans: seeking common ground

انحصرت الأهداف المعلنة لدورة تعليم اللغة الفرنسية (المستوى المتوسط) في زيادة التفاعل بين الطلاب داخل الصف intra-class من خلال استخدام تقنيات البريد الإلكتروني وبرامج المحادثة والانخراط في حوارات نقدية هامة مع الطلاب الفرنسيين المقيمين بأحد أحياء باريس (عن طريق البريد الإلكتروني)، وأخيراً للوصول لنتائج من وراء المشروعات البحثية القائمة على شبكة الإنترنت المعنية بالبحث الثقافي التعاوني للطلاب الفرنسيين والأمريكيين في آن واحد، وفيما يلي جزء من أول نشاط قام به الطلاب الأمريكيون الذين عملوا في مجموعات صغيرة العدد بعد مضي أسابيع عدة من

بدء الفصل الدراسي محل البحث، ولقد توسلوا ببرنامج Moo مع عميل Mac Moose الذي يظهر رسالة باسم المستخدم (يقول إريك Eric says: "....."، أو يقول مات Matt says: "....."). . ولا حظ هنا أن البرنامج لا يسمح باستخدام علامات اللهجة الفرنسية، ومن ثم لم تتغير أي من الحروف أو قواعد النحو المتبعة والمتعارف عليها رغم حدوث بعض الحذف بسبب ضيق مساحة الكتابة، ولسهولة التناول آثرنا تقسيم هذا الجزء المقتبس من حوارات الطلاب إلى ثلاثة أجزاء. ولقد قدم المشرف على المقرر وصفاً موجزاً عن طلاب مدينة إفري على أنهم وافدون من شمال إفريقيا، أو أنهم مهاجرون جدد لفرنسا، كما علم الطلاب الأمريكيون أن عدداً من هؤلاء الطلاب الفرنسيين يعيش في مساكن الإيواء الشعبي أو في مساكن عامة.

الجزء الأول: موضوعات العصف الذهني

Section one: Brain storming topics

- ١- يقول إريك: "خطرت لي فكرة عقد مقارنة بين التنوع العرقي في مدينة إرفي وولاية بركلي الأمريكية ... من حيث مسقط رأس الوافدين وأعدادهم ..."
- ٢- يقول كين: "ثمة سؤال يجول بخاطري: هل تعتبر الأحياء الشعبية منفى لا يطاق العيش فيه؟"
- ٣- يقول إريك: "سؤال وجيه ... أضف إليه سؤالاً آخر: هل يعيش أبناء الأحياء الشعبية وآباؤهم في مساكن الإيواء الشعبي؟"^(١)
- ٤- يقول مات: "احتمال قائم".
- ٥- يقول إريك: "كما يجدر بنا أن نسأل عن عمر هذا النوع من المساكن، ومنذ متى وهي موجودة؟"

(١) مشروع حكومي دعت إليه الحكومة الفرنسية في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين لبناء مساكن لمنخفضي ومحدودي الدخل.

- ٦- يقول إريك: "متى أنشئت؟ ولماذا؟"
 - ٧- يقول مات: "وهذا سؤال وجيه أيضاً".
 - ٨- يقول كين: "لكن ذلك السؤال غير جدير بفتح باب النقاش".
 - ٩- يقول مات: "أوافقك الرأي ، لكنه أمر أثار فضولي".
 - ١٠- يقول إريك: "ليس ضرورياً أن يأخذ الحوار شكل المناقشة، بل يمكن أن يكون على شكل مشروع بحثي".
 - ١١- يقول كين: "سيكون الأمر أيسر لو اتخذ الموضوع طابع مثيرات الجدل والنقاش".
- لم يتفق الطلاب الأمريكيون مع أقرانهم الفرنسيين في أول جلسة عصف ذهني تتناول الغرض الأساسي لتبادل الرسائل الإلكترونية فيما بينهم، فيرى إريك أن الهدف الأساسي يجب أن يكون القيام بالمشروع البحثي (مداخلة رقم ١٠)، في حين يؤكد كل من كين ومات أهمية اختيار الموضوعات التي ستثري المناقشة والحوار (مداخلات ٨ و ٩ و ١٠)، ولهذين الهدفين مردود في مقياس المهمة الحوارية التي كلف بها الطلاب، حيث بات واضحاً أن تحقيق هدف القيام بمشروع بحثي أمر إجباري. وعلى النقيض، نجد مساحة من الحرية يختار فيها الطلاب أهدافهم النابعة من دوافعهم تتمثل في الاتصال بالطلاب الفرنسيين، والتعرف على أسلوب حياتهم. ولقدرة الطلاب على استخدام حواسبهم الشخصية والبريد الإلكتروني للتواصل مع أقرانهم الفرنسيين خارج قاعة الدرس دون رقابة أو وساطة من المعلم، يميل هؤلاء الطلاب إلى محور الخطوط الفاصلة بين ما هو أكاديمي منظم وما هو شخصي، ما هو عام وما هو خاص، مما يدل على عدم إدراكهم أن "الحوار"، و"المناقشة الأكاديمية"، و"المشروع البحثي" هي أنماط شديدة الاختلاف فيما بينها لاختلاف الأسس التعليمية والثقافية

لكل منها، وهي التي تحدد طبيعة المادة العلمية التي سيثمر عنها الاتصال بين الطلاب في المراحل التالية .

الجزء الثاني: تعالوا إلى كلمة سواء

Section two: "Je veux nous mettre au meme niveau"

- ١٢ - يقول كين: "هل هناك ما نريد معرفته عن أولئك الذين يقطنون إرفي؟"
 - ١٣ - يقول مات: "أتوق لمعرفة آرائهم عن الحياة".
 - ١٤ - يقول إريك: "نعم ... وكذلك نظرتهم للمستقبل".
 - ١٥ - يقول مات: "وما إذا كان الالتحاق بالجامعة أحد مخططاتهم المستقبلية".
 - ١٦ - يقول إريك: "لكن كل تلك الموضوعات ... تتسم .. بالسلبية".
 - ١٧ - يقول مات: "نعم، إلا أن مقصدي هو الوقوف على مدى التشابه بيننا وبينهم في أسلوب التفكير".
 - ١٨ - يقول كيرن: "هل تقصد أنهم مثلنا أم يفكرون مثلنا؟"
 - ١٩ - يقول مات: "أقصد هل يفكرون بنفس الطريقة التي نفكر بها؟"
 - ٢٠ - يقول إريك: "ألا تعتقدون أنه لو سألنا أكثر الطلاب فقراً في أوكلاند Oakland ... عما إذا كان الالتحاق بالجامعة حلمًا من أحلامهم لن نجد ما يعوق ذلك؟"
 - ٢١ - يقول إريك: "دعوتي لكم جميعاً هي : تعالوا إلى كلمة سواء".
- وفي حين يحاول الطلاب الأمريكيان الثلاثة الوصول "لنفس مستوى" محاورهم الفرنسيين، نلاحظ إدراكهم العميق للفوارق الاجتماعية والطبقية التي تحدد ملامح ما يرسمونه من صورة للآخر مقابل صورتهم أمام أنفسهم، حيث يصورون طلاب إرفي على أنهم فقراء كادحون لا يرقى مستوى طموحهم للالتحاق بالجامعة، ومن ثم يعد مستقبلهم كبحر لحي، إلى جانب إيمانهم العميق بمسؤوليتهم نحو تحقيق المساواة بينهم

وبين أقرانهم ، وبقدرتهم على تحقيق ذلك وهو ما أوحى به هويتهم المعارضة للثراء ، وعدم تكافؤ الفرص حتى لو كانت بيئة عدم المساواة هي ذاتها الواقع الذي ينشدون سبر أغواره. وللخروج من هذا التناقض ، نعمد إلى أحد تفسيرين له يجسدهما الحوار التالي بين كاتبَي هذا الفصل ستيف وكليز.

ستيف: من الواضح أن صور الواقع الذي يرسمه الطلاب الأمريكيون لأقرانهم الفرنسيين تتسم بالسلبية (كما هو واضح من قولهم "أكثر الطلاب فقراً في أوكلاند") بالإضافة إلى هيمنة فكرة الفوارق الاجتماعية والطبقية على مداخلات أطراف هذه المناقشة ، إلا أنني لا أشير بأصابع الاتهام للمشاركين فيها بأي حال من الأحوال ، ولا أحمل آراءهم على مظنة السوء ، بل أرى بعين التفاؤل أنهم يشككون في حساسية موضوعات كالاتحاق بالجامعة أو خطط المستقبل ، بناءً على ما توفر لهم من معلومات عن إرفي. ويخال إليّ أن ذلك الجهد الرامي إلى فهم الأمور من وجهة نظر طلاب إرفي ، يساعد على إحلال هذه الأفكار والتوجهات محل ممارسات التمييز وفق الثقافة والطبقة الاجتماعية (وهو الهدف المعلن للتواصل بين الطلاب) .

كليز: لا أرى أن الطلاب الأمريكيين مخطئون ؛ لأن عذرهم هو نقص معارفهم عن الآخر فتنعكس رؤيتهم لمدن هارلم Harlem وشرق أوكلاند East Oakland على تصورهم لأحياء باريس ، وكذلك رؤيتهم لفقراء أمريكا القاطنين الأحياء الشعبية على سكان إرفي . ورغم إدراكهم للفوارق بينهم ، نجد أنهم وضعوا نصب أعينهم الوصول إلى قاسم مشترك يربطهم بأقرانهم بعيداً عن هذه الفوارق . فماذا يقصدون إذن برغبتهم في فهم طريقة تفكير الفرنسيين؟ وما الذي يريدون فهمه بالضبط إذا استقر في أذهانهم أن ظروف المعيشة في أمريكا وفرنسا متشابهة ، وأن العنف

والصراع الطائفي العنصري أمر وارد في كل المجتمعات، ولا يقتصر على مجتمع بعينه؟

ستيف: وربما يكون هذا الميل للوقوف على نقاط التشابه بينهم وتأكيدا خطوة ضرورية قبل استكشافهم لمناحي الاختلاف عنهم.

الجزء الثالث: ثقافة الشباب العالمية كعامل للمساواة

Section three: The great equalizer- global youth culture

٢٢- يقول كين: "أريد أن أعرف كيف يعيش الناس في إفري، فأنا أعرف أسلوب الحياة الباريسي، لكنني أجهل كيف يعيش الطلاب في إفري".

٢٣- يقول إريك: "كيف يعيشون؟ هل تقصد نمط حياتهم اليومية؟"

٢٤- يقول كين: "نعم".

٢٥- يقول إريك: "ما الذي يقض مضاجعهم؟"

٢٦- يقول كين: "هل تقصد قضايا العلاقة بالوالدين وتعاطي المخدرات والجنس ومرض نقص المناعة المكتسبة "الإيدز" وقضايا السياسة؟"

٢٧- يقول إريك: "نعم، نعم، نعم! هذا بالفعل ما أقصده".

كلير: أي أنهم يلجؤون لموضوعات مألوفة كالأسرة والمخدرات والجنس والإيدز والسياسة من أجل الوصول إلى قاسم مشترك بينهم، وهي موضوعات عالمية الطابع ولن يتمخض عنها مشاكل تعوق سير الحوارات التي ستدور بينهم. لكن افتقار طلاب مدرسة بيركلي لمعلومات كافية عن فرنسا، يجعل من تلك الموضوعات أمراً هاماً قد لا يرى طلاب مدرسة إفري الفرنسية نفس الأهمية لها.

ستيف: أرى أن رغبة الطلاب الأمريكيين في مناقشة مشاغل الحياة اليومية وثقافة الشباب ليست إلا محاولة منهم لإيجاد محاور يمكن أن تقدم أسساً اجتماعية وثقافية

وحياتية مشتركة فيما بينهم ، وبذلك تتطور موضوعات ثقافية مشتركة بين الشباب يمكن من خلالها التعبير عن ذواتهم على الصعيد الشخصي الذاتي أو العالمي الموضوعي حيث يهدف الطلاب الأمريكيون لتحقيق تفاعل مستقبلي مع أقرانهم الفرنسيين قوامه العدل والمشاركة والأمل في مد جسور الأواصر بينهم وفي فهم بعضهم بعضاً على بصيرة ووعي.

كثير: رغم النوايا الحسنة والمثالية التي ينطوي عليها هذا التوجه، إلا أن السبيل لتحقيق هذا النوع من الاتصال المثالي بمعزل عن الحقائق الأساسية، وفهم الظروف الاجتماعية والثقافية التي يخضع لها كل فريق، يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار؛ لأنني أرى أن هذا التوجه يخلو من معرفة حقيقية بالآخر، ويقوم على محاولات مشوشة لدأواصر الثقة مع غيرهم وفق الفكرة المزعومة عن ثقافة الشباب المشتركة.

الاتصال اللامتزامن عبر الإنترنت بين الطلاب الأمريكيين

وأقرانهم الفرنسيين: صدام التوقعات

Asynchronous CmC between American and French students: clashing frames of expectation

نعرض فيما يلي لمقتبسات من نشاط المتابعة اللاحق لحوارات التواصل المتزامن كالتى عرضنا لها آنفاً، ولقد قمنا بجمعها أيضاً في مارس من عام ١٩٩٧ بين مجموعة أخرى من طلاب البكالوريوس الأمريكيين الدارسين للفرنسية بالعام الدراسي الثاني بجامعة بيركلي، وأقرانهم الفرنسيين التابعين لمدرسة فريدريك مسترال الثانوية بمدينة^(١) فرسنيه Fresnes الدارسين للإنجليزية حين تم أول اتصال بين معلمة اللغة الفرنسية بالولايات المتحدة الأمريكية ونظيرتها معلمة اللغة الإنجليزية بفرنسا (انظر كونتريبوا Contrepois 1999). أما الطلاب الفرنسيون والأمريكيون فقد شاهدوا فيلم فيديو بعنوان

"الضغينة" La Haine الذي أخرجه ماثيو كاسوفيتش Mathieu Kassovitz عام ١٩٩٥ ، يتناول فيه قضايا العنصرية والعنف وثقافة العصابات وأثر الثقافة الأمريكية لثلاثة أولاد يعيشون في مشاريع الإسكان الخاصة بضواحي باريس. ويعد هذا الفيلم بداية نقاش وحوارات بين الطلاب وأقرانهم الفرنسيين حول عدد من الموضوعات طوال الفصل الدراسي بحيث يكتب الطلاب الأمريكيون مشاركاتهم أو ردودهم باللغة الفرنسية ، ويرد عليهم الطلاب الفرنسيون باللغة الإنجليزية دون تدخل من معلمهم. إلا أن الطلاب الأمريكيين أرسلوا مشاركاتهم من حواسيبهم الخاصة في منازلهم ، في حين سلّم الطلاب الفرنسيون ردودهم لمعلمتهم التي أرسلتها بدورها من خلال حاسبها الشخصي. بدأ الاتصال اللامتزامن بمشاركة الطلاب الأمريكيين كما يلي:

إلى من يهمه الأمر:

اكتب إليك بالنيابة عن رفاقي في فصل ١٣ الدارسين للفرنسية على يد معلمتنا جولي سوفاج بكلية بيركلي. بعد مشاهدتنا لفيلم "الضغينة" ، داخل قاعة الدرس ، أصابنا الدهول من محتواه الذي يرسم صورة لفرنسا لم نعتد عليها هنا في الولايات المتحدة مما أصابنا بالخيرة ، لذلك أرجو منك أو من رفاقك بالصف إيضاح الأمر لنا ، ولتيسير الأمر قمنا بإعداد مجموعة من الأسئلة حول الفيلم هي :

١- هل هناك أية تشابهات بين الحياة في أحياء باريس التي ظهرت في الفيلم والواقع المعاش فعلاً؟

٢- هل ثمة مشاكل بين الشباب الفرنسي والشرطة؟

٣- هل تنشأ أحداث الشغب في أحياء باريس؟

٤- هل من العسير اقتناء الأفراد لأسلحة في فرنسا؟

٥- هل يصعب الحصول على مخدرات (مثل الماريجوانا marijuana) في فرنسا؟

٦- لماذا برأيكم يجهل الشباب الأمريكيون مشاكل فرنسا الاجتماعية؟

٧- هل تعتقد أن الموقف في أحياء باريس أسوأ منه في العشوائيات العرقية بالولايات المتحدة؟

المُرسل: نات تشادويك Nat Chadwick

تدل تلك القائمة التي أعدها الطلاب، والمعلومات التي طلبوها، بما لا يدع مجالاً للشك، على أن الاتصال في نظرهم هو نقل للحقائق الموضوعية الصحيحة المستقاة من مصادر موثوق بها، علاوة على ما يوحي به اعترافهم بالجهل (قولهم "أصابتنا بالحيرة")، وطلبهم العون، وكذلك تعاطفهم الوجداني مع أقرانهم الفرنسيين من حسن النوايا ورغبتهم في بناء أسس الثقة بينهم، نظراً لما رأوه في الطلاب الفرنسيين من مصدر موثوق به، ونافذة على القضايا الحساسة كالواردة في السؤالين السادس والسابع. أما الصيغة الكتابية كوسيط بينهم، وكذلك طبيعة الاتصال اللامترامن فتفرض الطابع الرسمي على قائمة الأسئلة التي تعد أساس الحوار بينهم، رغم ما وشت به الفقرة الافتتاحية من إحساس الطلاب بالحيرة، وهو أمر شخصي غير رسمي. وينبع ذلك الاختلاف في الأسلوب البلاغي من استخدام الطلاب الخاطئ للمفردات الفرنسية القريبة المعنى false friends مثل كلمة choqué (وهي تعني في الإنجليزية "مصاب بالذهول" shocked في حين تعني بالفرنسية "يشعر بالعار" scandalized)، وكلمة confusion (التي تعني في الإنجليزية "الحيرة" وتعني في الفرنسية "الخرج") الأمر الذي قد يؤثر سلباً على الجو الانفعالي emotional tone الذي يسود الاتصال، رغم ما قد يزعمه بعض منا من أن هذه الأخطاء البلاغية (مثل استخدام العبارة القانونية "إلى من يهمه الأمر" التي تدل على الرسمية الشديدة في موقف تواصل غير رسمي) لا تعوق نقل المعلومات، لكنها تقلل من مستوى المصادقية بين أطراف الاتصال خاصة عندما يعم الغموض اللغوي عبر البريد الإلكتروني نظراً لغياب التدقيق والتحرير اللغوي. ومثال ذلك ما نجده في الجملة الثالثة من الرسالة السابقة من غموض في سبب إحساس الطلاب

الأمريكيين "بالذهول" وهل هو أن الصورة التي يرسمها الفيلم لفرنسا تختلف عن الصورة التي اعتادوا عليها، أم أن هذا النوع من العنف غير مشاهد في المجتمع الأمريكي؟ ونخلص من ذلك إلى القول إن مثل هذا النوع من الاختلافات في الفهم والغموض اللغوي يسود الاتصال العالمي الحالي عبر الإنترنت، حيث يحاول مستخدمو الشبكة العنكبوتية فهم بعضهم بعضاً من خلال طلب معلومات يختلف الكثيرون في تقييمها وتقدير الأبعاد الدلالية لها، ومن ثم تختلف معها عبارات تقدير مصداقية هذه المعلومات، علاوة على قبولية الطلاب الفرنسيين في قوالب "المعلمين" الغامضين أو "المُرشدين" أو "المُحاورين" أو "أطراف في الحوار"، فمثل هذه الأسئلة التي طرحها الطلاب الأمريكيون تعد خروجاً عن حدود اللباقة، وغير مسموح بها في فرنسا على مستوى الحوار غير الرسمي (لاحظ عدم توجيه الطلبة الفرنسيين أي أسئلة لأقرانهم الأمريكيين)، في حين ينبع الغموض من رغبة الطلاب الأمريكيين في عدم إيذاء مشاعر الفرنسيين من خلال تحاشي المواجهة معهم (انظر: Cameron 2000)، ولا يبقى أمام الطلاب الفرنسيين إلا أن يتعاملوا مع هذه الأسئلة من منظور التدريبات الصفية الواجب على الطلاب أداؤها، أو كحوار رسمي رغم الأخطاء الأسلوبية والبلاغية التي أشرنا إليها، لذلك جاءت ردودهم في صيغة تقرير رسمي لتكون النتيجة في كلتا الحالتين أن يخرج أسلوب الحوار عن الغرض الذي أعد من أجله كما سنرى فيما يلي.

بعد مرور خمسة أيام من إرسال الطلاب الأمريكيين رسالتهم، جاء رد ثلاثة طلاب فرنسيين حريصين على نقل معلومات دقيقة وموثوق بها للمقارنة بين المجتمعين الفرنسي والأمريكي جاء فيها:

عزيزى نات:

ليس من المحمود أن تقع في خطأ التعميم، لأن في باريس أنماطاً ثلاثة من الأحياء على الأقل، فيقطن صديقنا ساندرين Sandrine مثلاً أحد الأحياء الراقية حيث الهدوء يعم الأجواء، في حين تسكن صوفي Sophie منطقة تعلق فيها وتيرة العنف آنأ بعد آخر، أما ديلفين Delphine فيعيش في حي تهيمن عليه أحداث الشغب والعنف بشكل كبير، ولك أن تتخيل أن أحد الباعة في مكتبة قُتل بدون سبب منذ أربعة أشهر خلت. لكن يخال إلي أن الموقف في فرنسا أفضل حالاً منه في أمريكا حيث يصعب على صغار المجرمين حمل السلاح في فرنسا خلافاً لما نسمعه عن الولايات المتحدة، علاوة على عدم وجود أحياء عشوائية تضم أقليات في فرنسا تشبه تلك الموجودة في أمريكا، فلن يقع بصرك في فرنسا بأكملها على منطقة تشبه حي هارلم Harlem التي لا يُسمع فيها إلا صوت العنف والشغب.... لذلك نؤكد لك أن البون شاسع بين ما رأيتموه في الفيلم والواقع المعاش.

المرسل: ساندرين وديلفين وصوفي

يتضح من الأسلوب البلاغى الذي كتبت به تلك الرسالة والذي يتميز بالمنطق خاصة في أدوات الربط (مثل "ولكن" و "مع ذلك") علاوة على الترتيب الثلاثي لأحياء باريس أن هناك محاولة من جانب الطلاب الفرنسيين للتعود على الإنترنت كوسيط اتصال إلكتروني، فجاءت رسالتهم الإلكترونية وكأنها خطاب رسمي يبعث في نفس قارئه الثقة فيما يرد فيه من معلومات. هنا تقمص الطلاب الفرنسيون (وهم متحدثون أصليون للفرنسية) دور المتحدث الرسمي نيابة عن المؤسسة التعليمية الفرنسية بما لهم من معرفة قوية بالظروف المحلية هناك؛ مما يجعلهم أهلاً للثقة فيما يقولون. وتدل عباراتهم الإنجليزية الخالية من الأخطاء على الهدف من وراء الرسالة وهو تأكيد المصداقية فيما يقولون، إلا أن خبرتهم المحدودة لم تمكنهم من رسم صورة أكثر تفصيلاً لموقف المهاجرين إلى فرنسا على الصعيدين السياسي والاجتماعي، وبالرغم من أسلوبهم البلاغى الأكاديمي إلا أن رسالتهم تتصف بالعنصر القصصي السردى الشخصى النزعة والقائم على ظروف كتابتها، مما يجعل بها ثغرات تؤدي لعدم الفهم،

فالتعبير الرسمي الفرنسي "لا يجدر بكم التعميم" il ne faut pas generaliser قد ترجمه الطلاب الفرنسيون إلى الإنجليزية you shouldn't generalize وهي عبارة لا تخلو من المضامين الشخصية فأصبحت اتهاماً للطلاب الأمريكيين. نظراً لهذا الغموض الذي يكتنف استخدام ضمير المخاطب (You) والذي يستخدم في الإنجليزية -كما هو معلوم- للدلالة على المفرد والجمع.

وبعد مضي أسبوعين صبّ نات وإريك جامّ غضبهما في رسالة جاء فيها:
اعزاءنا : ساندرين وديلفين وصوفي

لقد استهلتكم خطابكم بعبارة: "لا يجدر بكم أن تقعوا في خطأ التعميم" التي أصابتنا بالدهشة؛ لأن المقصود من وراء الأسئلة التي طرحت عليكم كان الوصول إلى مستوى أفضل من فهم حقيقة الموقف في الأحياء الفرنسية، ولم تخرج إجاباتكم عن النعرات القومية! مثل: "الموقف في فرنسا أفضل حالاً من الموقف في أمريكا" و"لو ذهبتم إلى فرنسا لن تقع أعينكم على مظاهر العنف المستفحل في حي هارلم Harlem في نيويورك".

والسؤال موجه لكم الآن: هل سبق أن زرتُم هارلم Harlem؟ هل أنتم على دراية كافية بمشكلات الولايات المتحدة الاجتماعية؟ هل سبق لكم العيش في هارلم Harlem أو بروكلين Brooklyn، أو برونكس Bronx بولاية نيويورك، أو أوكلاند، أو ريتشموند Richmond، أو كومبتون Compton، أو لونج بيتش Long Beach أو هنا في بيركلي؟ كيف تسنى لكم الوقوف على حال الأوضاع في الأحياء العرقية بالولايات المتحدة دون سابق معيشة فيها؟ من أين استقيتم معلوماتكم - أمن الأفلام الأمريكية؟ وإذا لم أكن مخطئاً فأنتم من وقعتُم في خطأ التعميم ولسنا نحن، لذلك اسمحوا لنا أن نصف ذلك بالنفاق.

ولكم أن تتخيلوا ما قالته كريستيل Christelle وهي طالبة أخرى أرسلت ردها الذي وصفت فيه الفيلم بأنه نعم العون لمن يرغب في فهم واقع الحياة بأحياء باريس. لذا فأَي الفريقين أحق بالثقة: أنتم أم هي؟

المرسل: نات وإريك

إذا ما غضضنا الطرف عن حقيقة أن الطلاب الأمريكيين هم الذين طلبوا من أقرانهم الفرنسيين عقد مقارنة بين أحياء فرنسا وأحياء أمريكا (راجع الأسئلة السابقة) فإن الرسالة السابقة هي تعبير عن غضب نات وإريك، فما وصفوه بأنها أسئلة لمجرد الحصول على معلومات، باتت إهانات عندما جاء الرد بلغتهم الأم -الإنجليزية- لأن الفرنسيين يكتبون بلغة إنجليزية سليمة، لكن دون الاستناد على مصدر موثوق لمعلوماتهم عن حال المجتمع الأمريكي. الشاهد من ذلك أن ما حدث ليس سوء فهم ناتج عن اختلافات في الصياغة اللغوية، بل هو شكل من أشكال صدام الثقافات ناتج عن اختلاف أسلوب التعبير الخاص باللغتين الفرنسية والإنجليزية، وكذلك اختلاف فهم كلا الفريقين للأساليب المناسبة للتعبير باللغة الأخرى، فالحوار الأكاديمي الفرنسي المصاغ باللغة الإنجليزية، لم يلق قبولاً لدى الطلاب الأمريكيين على أنه قائم على الحقائق العلمية، بل على أنه مجرد "نعرات قومية"، أما الحوار الشخصي للطلاب الأمريكيين والذي حاولوا فيه قدر المستطاع نيل رضا الفريق الفرنسي، وتحقيق المساواة معهم (وهو باللغة الفرنسية بالطبع) لم يلق قبولاً لدى الطلاب الفرنسيين على أنه محاولة لتعزيز أو اصرر الثقة بين الفريقين، بل على أنه يفتقر للدقة العلمية (وهو واضح من قولهم "لا يجدر بكم التعميم"، وفي حين نرى الطلاب الفرنسيين يعبرون (بالإنجليزية) بأسلوب يناسب مكانتهم وموقفهم الأكاديمي كطلاب في مدرسة، نرى الطلاب الأمريكيين يعبرون (بالفرنسية) عن ذواتهم الفردية المستقلة وعن رغبتهم في التواصل مع أفراد مثلهم، فنجد مثلاً نات وإريك يفندون ما جاء على لسان الطلاب الفرنسيين بالتشكيك في خبرة الأفراد أنفسهم، ومن ثم مصداقيتهم، وليس بوضع دعواهم في إطارها الاجتماعي السياسي الصحيح (بقولهم: "كيف تقولون شيئاً عن

حي هارلم Harlem ولم يسبق لكم العيش فيه؟" ورغم الموضوعية التي تتسم بها الأسئلة الخمسة الأولى التي طرحها الطلاب الأمريكيان على أقرانهم الفرنسيين، إلا أن مبتغاهم الحقيقي هو الخبرة الذاتية والشخصية للطلاب الفرنسيين، وليس التفسير العام للأنظمة المتبعة في فرنسا مثل حظر حمل السلاح في فرنسا مقابل شرعية ذلك في الولايات المتحدة.

إن ثورة الغضب التي قابل بها نات وإريك رد الطلاب الفرنسيين، يقوم على الانطباع السلبي للفظـة "نـعـرة قـومـية" في الإنجليزية الأمريكية والتي ترجمت بالطبع إلى مقابلتها الفرنسية الإيجابية مؤمنين في قرارة أنفسهم بالصبغة الشخصية للاتصال عبر الإنترنت دون التقيد بأي ضوابط أو أيديولوجيات قومية أو مؤسسية، فالقول الفصل في مثل هذا النوع من الاتصال بين فرد وآخر هو للخبرات الإنسانية فقط، وبمجرد إدراكهما للبون الشاسع بين منطلقاتهم ومنطلقات أقرانهم الفرنسيين الذين لا يتصلون بهم كأفراد تصادف أن الفرنسية هي لغتهم الأم بل يمثلون مؤسسة تعليمية ثانوية كطلاب يحملون الهوية الفرنسية التي تميزهم عن الطلاب الأمريكيين (وهم، لذلك، في نظرهم تجسيد للهوية الأمريكية) أرغى كلٌّ من نات وإريك وأزيدا ثم قررا الثأر لنفسيهما.

ردت ديلفين بعد أسبوع على رسالة نات وإريك محاولة أن تعيد المياه إلى مجاريها ليسود مناخ الاتصال بين الفريقين من خلال النقد الهادئ لما ورد بهذه الرسالة، معتبرة هذه الأسئلة البلاغية التي تقطر سخرية وغضباً مجرد طلب معلومات عادي، فكتبت:

قائلة:

عزيزي : نات وإريك

أرجو أن يتسع صدراكما لتسمعا ردي على رسالتكما التي أصابتني بالدهشة ،
فأنا أرى أنكما خرجتما عن جادة الصواب ، فلم تفهما ما كتبناه جيداً . وها هي إجابتي
عن أسئلتكم ، فلم يسبق لي أن زرت أمريكا ، وكل ما أعرفه عنها مصدره الكتب
والأفلام السينمائية التي تعرض أمريكا في أقبح صورها حيث العنف ، وتحوي الكتب
الكثير من الصور كتلك التي أوردتها برسالتني الخاصة بـ..... ، كما أرى أننا لسنا
"منافقين" كما هو وارد برسالتكما ، فما كتبناه لا يخرج عن تلك المعلومات المتاحة لدينا .
وختاماً ، أنتظر ردكما على رسالتي هذه .

المرسلة: ديلفين

لا يبدو من رسالة ديلفين أنها تحاول إذابة الفوارق بين الفريقين ، بل على
العكس تفند انتقادات الطلاب الأمريكيين لتبين تلك الهوة الفاصلة بينهما ، ولتظهر
موقفها مما ورد برسالتيهما ، إلا أنها لا تشير إلى قائمة الأسئلة الأولية ولا تسعى إلى
فهم السبب وراء ثورة غضبهما ، واتخاذهما لموقع المدافعين . والآن مع آخر رسالة رد
فيها الطلاب الأمريكيون بما يلي :

أعزائنا : إميلي Emilie وإيزابيل Isabelle وصابرينا Sabrina

هل يتوافر لديكم أفلام أخرى غير "الضغينة" تعرض للحياة في فرنسا بشكل
أفضل؟ ولماذا ترون أن العنف في فرنسا سببه العنف في أمريكا؟ نعتقد أنكم جانبتم
الصواب لأن العنف والتمييز العنصري هي ظواهر عالمية ... ولا ندري أي الأفلام
الأمريكية شاهدتم ، بل ونجزم بأن الأفلام التي تعج بمشاهد العنف لا تعبر بصدق عن
كل أوجه الحياة في الولايات المتحدة. لذلك نناشدكم إخبارنا عن أفلام أمريكية ترون
فيها تجسيدا للعنف الأمريكي بحق ، ومن ناحية أخرى نعترف بافتقارنا لمعلومات كافية
عن الوضع في فرنسا ، فهل تقترحون علينا موضوعات أخرى نتخذها نواة لسلسلة من
الاتصالات والمناقشات بيننا؟

تقبلوا تحياتنا.

المرسل: إنريكو Enrico وبيث Beth وكاسي Cassie وبريسيللا Priscilla.

نلاحظ في هذه الرسالة الأخيرة محاولة الطلاب الأمريكيين الأربعة رأب الصدع بين الفريقين باللجوء لبعض الإستراتيجيات التنظيمية مثل: (١) مضاهاة المثال بالمثال المقابل له، و(٢) طلب الأدلة الموضوعية الصحيحة على أي زعم ورد بالرسائل السابقة، و(٣) التوسل بالحقائق الفلسفية العامة، و(٤) الاعتراف بافتقارهم للخبرة المباشرة بالواقع الفرنسي الفعلي، و(٥) مواجهة النزعة التعميمية في مزاعم الطلاب الفرنسيين، و(٦) اقتراح تغيير موضوع النقاش، فلا يسعى هؤلاء الأربعة إلى الخوض في الفوارق الثقافية مفضلين مناقشة دور مدينة السينما الأمريكية بهوليوود ووسائل الإعلام والترفيه في رسم صورة أمريكا وتصديرها لباقي دول العالم. لكن الملاحظ مرة أخرى أن لهجة الرسالة دفاعية مثلما فعل الطلاب الفرنسيون في ردهم الأول، ولا ندري كيف نجح هذا الاتصال في تحقيق التفاهم المتبادل بين الطرفين حتى لو اعتبرنا أن فكرة الاتصال في حد ذاتها أمر في مجمله يعود بالنفع على كليهما.

تتميز الرسائل التي أرسلها الفريقان من الجانبين باختلاف أسلوب الحوار على المستوى القومي والمؤسسي والشخصي وذلك واضح جلي مما جاء على لسان إريك الذي شارك في الاتصال بنوعيه المتزامن واللامتزامن عندما تحدث عن الصدام الذي حدث بين أسلوبَي الاتصال لكلا الفريقين:

"يختلف البريد الإلكتروني كماً وكيفاً عن صيغ الكتابة المعتادة ... فعندما تقرأ رسالة بالبريد الإلكتروني، فأنت في حالة حوار في شكل كتابي يمكنك من الرجوع لها ومراجعتها، وهو أمر له من النفع الكثير، وهو ما حدث معي شخصياً مع أحد متحدثي الفرنسية كلغة أم وكانت تجربة متميزة، إلا أنني آخذ على الاتصال بالفرنسية أنهم يكتبون رسائلهم كما لو كانوا بصدد كتابة مقالات يرسلونها لنا وليس مجرد حوار عبر البريد الإلكتروني.

- يبدو أنكم ستطرحون أسئلة، أليس كذلك؟ ألم يصلكم الرد؟

- أحياناً يسير الأمر على ما يرام ... وأحياناً لا ، لكن الواضح أنهم لا يقومون بنفس ما نقوم به ، وأن منطلقاتهم الفكرية نحو الاتصال بنا تختلف عنا كثيراً ، لقد بدا لي أننا بصدد إنهاء مهمة ما ، في حين بدا أنهم ... لا أدري حقاً كيف أصف ما كانوا يقومون به (يضحك).

استمر إريك في سرد الصعوبات التي واجهت اتصالهم بطلاب مدرسة إفري ، وأرجعها إلى اختلاف الطبقات الاجتماعية رغم عدم وضوح الرابط الذي وضعه بين الطبقة الاجتماعية والمستوى الاقتصادي ، وبين القدرة على الاتصال والمضي قدماً في حوار مع الآخر حيث يقول :

"كانت الفوارق الاجتماعية والاقتصادية واضحة وضوح الشمس بيننا وبينهم ، حيث كنا نقوم بنشاط تواصل ، لكن الواقع أثبت أن ما دار بيننا لا يرقى لمستوى النقاش أو الحوار ، فعندما كنا نتحاور -نحن الأمريكيين- فيما بيننا كان للحوار طابع المناقشة والاتفاق لتسير عملية الحوار للأمام ، أما معهم -أي مع الطلاب الفرنسيين- فلم يتعد الأمر حدود السؤال والإجابة ...".

بين العالمي والمحلي: إشكالية نوع الحدث الكلامي

Between global and local - genre

تعرض مجموعة الرسائل والحوارات السابقة لسيناريو عام حول إشكالية استخدام التقنية الرقمية بغرض تعلم اللغة الفرنسية في بيئة جامعية بأمريكا ، ورغم تبادل الرسائل بين هؤلاء وأولئك ، لكن هل هناك دليل على حدوث "اتصال" بالمعنى المتعارف عليه في تدريس اللغة الأجنبية؟

لقد ساعد عرض نوعي الاتصال المتزامن واللامتزامن للثقافتين الإنجليزية والفرنسية ، جنباً إلى جنب ، على إلقاء الضوء على توقعات الطلاب الأمريكيين من وراء اتصالهم بالطلاب الفرنسيين عبر البريد الإلكتروني ، وعندما لاحت معوقات كالطبقة الاجتماعية أو الأصل العرقي أو المستوى الاقتصادي في الأفق مهددة سير

عملية الاتصال، لجأ الطلاب الأمريكيون للبحث عن قاسم مشترك فوجدوا في ثقافة الشباب العالمية ضالتهم المنشودة (إذ كان هدفهم الوقوف على أسلوب تفكير ومعيشة الطلاب الفرنسيين)، ولوهلة بدا الاتصال الإلكتروني كأنه يعلو على قضايا التمييز وفق الطبقة الاجتماعية أو الحالة الاقتصادية، وأنه يتخطى اللون المرتبط بالعرق، وأن به من المزايا ما يحقق المساواة بين طرفي الاتصال. لكن التجربة العملية أثبتت أن هذه الوسيلة تخفف قليلاً من وطأة تلك القضايا، ولا تلغيها كليةً. وعلى صعيد آخر، فإن الهدف من الاتصال الثقافي السابق ذكره لم يكن التعرف على مضامين ألفاظ بعينها (مثل كلمة ضاحية barlieue/suburb، وحيرة confusion/confusion، ومصاب بالذهول choqué/shocked في كلتا اللغتين) بل يتعدى ذلك ليتناول الأسس الأسلوبية والبلاغية للتواصل بهذا النوع من الوسائل (مثل جوانب الأسلوب الرسمي والودي أو المدقق لغوياً وغير المدقق لغوياً أو الأكاديمي والدارج للاتصال عبر الإنترنت) والأهم من ذلك هو دراسة نظام التواصل الذي ينتمي له هذا النوع من الوسائل (انظر سكولون وسكولون 1995 Scollon and Scollon). لكننا لم نلاحظ من ذلك النشاط التفاوضي أو الحواري إلا النزر اليسير، سواء في مشاركات الجانب الأمريكي أو مشاركات نظيره الفرنسي رغم حدوث الاتصال بشكل تزامني، أي يجري فيه إرسال المداخلة والحصول على الرد عليها في نفس الوقت. ولم تشفع جوانب حسن النية وفرصة الاستثمار الجيدة للعلاقات الشخصية ووجود ضوابط للاتصال في تجنب عدم فهم الطرفين للإطار الثقافي الخاص بكل منها ومدى أهمية ذلك في نجاح عملية الاتصال برمتها.

إن محددات الاتصال في المثال السابق هي اختلاف ما يتوفر لدى كل طرف من معلومات متبادلة بينهما، ورغبة الدخول في حوار مع من يختلف عنا ثقافياً، فاستمت

معظم مشاركات الطرف الفرنسي بتقديم الحقائق البعيدة عن الأهواء الذاتية مدركين في ذلك أنهم يمثلون بلدهم وهويتهم "كمتحدثين أصليين" للفرنسية حتى لو كانت لغة كتابتهم هي الإنجليزية، الأمر الذي منحهم ميزة رمزية إضافية في هذا المضمار اللغوي، فأصدروا أحكاماً بشأن الوضع في فرنسا مصححين بين الفينة والفينة ما قد يقع فيه الطلاب الأمريكيون من أخطاء في اللغة الفرنسية، وجاءت ردودهم كمعلومات من متحدث رسمي لما سأل عنه الطلاب الأمريكيون صراحةً، مما وضعهم في قالب من يكتب تقريراً مدرسياً حتى ولو اتضح أنهم يخاطبون الجمهور الخطأ، وأن أسلوبهم لا يتوافق مع تطلعات هذا الجمهور من وراء الأسئلة التي طرحها. لقد ظن الطلاب الفرنسيون أن مصداقيتهم تنبع من الحقائق الموضوعية التي يقدمونها للطلاب الأمريكيين، إلا أن ثمة احتمالاً آخر أن يكون الطلاب الفرنسيون قد حاولوا استخدام الأسلوب البالغ الصحة hypercorrect (وهو أسلوب يستخدم فيه الشخص اللفظة الخطأ أو النطق الخطأ في محاولة لإظهار إتقانه للغة)، والبالغ الحرص hypercautious وهو أسلوب يميز الاتصال الذي يتخطى الحدود الثقافية والاجتماعية، لذا ينطوي على مخاطرة (انظر بورديو 1991).

وعلى الجانب الآخر نجد أن معظم الطلاب الأمريكيين الذين شرعوا في هذا الاتصال بغرض "تحسين مستوى إتقانهم للغة الفرنسية، وتحقيق فهم أفضل" للحياة الفرنسية، وجدوا في الاتصال نشاطاً يدعم بناء جسور الثقة المتبادلة بين الطرفين، فقدموا أنفسهم في شكل مستثمرين لمعلوماتهم اللغوية، وبذلك يصبحون مسؤولين عن إيجاد حلول لما قد يطرأ من إشكاليات، فبرهنوا على خبرتهم السابقة بقضية العنف، وعبروا عن آرائهم الشخصية، وأجم الإحباط ألسنتهم عندما أحسوا بأن محاورهم يصرون على تكمص الدور المؤسسي التعليمي القومي الذي تصرف الطلاب

الأمريكيون خارج نطاقه، وهو ما دل عليه الأسلوب الشفهي الانفعالي لمداخلاتهم المليئة بالأسئلة وعلامات التعجب. ويبدو أن الطلاب الأمريكيين توقعوا أن يعرفوا الحقيقة من خلال الاتصال المباشر بمحاورهم الفرنسيين على أساس من الخبرة الشخصية المشتركة في سعيهم إلى فهم الحياة الفرنسية والعثور على نافذة لهم على "الواقع الفرنسي". إن الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الطلاب هو توهم أن هدفهم ممكن التحقيق نظراً لتوافر فرصة الاتصال الآني الذي تقدمه الإنترنت ويقوم على اشتراك كل الأطراف في الحوار، وليس مجرد السؤال عن معلومات عامة موضوعية أو حتى مناقشة المعاني والمعتقدات الأجنبية.

هل الأمر مقتصر على اختلاف أسلوب التعبير؟ يفرق باختين Bakhtin بين مصطلحي الأسلوب style (أي اختيار الفرد لألفاظ وعبارات الحوار) والنوع أو نوع الحدث الكلامي genre (أي السمات أو الأسس العامة التي يتبعها مجموعة من المتحدثين في الحوار، أو ما يسمى "بالخبرة التراكمية") (انظر: Morson and Emerson 1990: 292)، لذا فالنوع الحوارى لمجتمع ما، هو مخزونه التاريخي المشترك والأسلوب الذي تفهم به اللغة والاتصال والعلاقات الشخصية، وكيفية رسم ذلك المجتمع صورة لمستقبله (انظر كرامش 1998). ويرى باختين Bakhtin أن نوع الحدث الكلامي speech genre هو "مستودع لما اعتاد عليه أفراد المجتمع من سلوكيات طوال تاريخهم" (انظر: Morson and Emerson 1990: 290) ويتميز "بالثبات النسبي فيما يقوله الناس" (انظر: Bakhtin 1986: 60) مما يدل على أن النوع الكلامي هو "مجموعة من القيم وأسلوب التفكير بشأن أنماط الخبرات، وكذلك فطرة الناس التي جبلوا عليها في تحديد ما يناسب المواقف الاجتماعية المختلفة من عبارات وانفعالات" (انظر: Morson and Emerson 1990: 291)، ومؤخراً قال هانكس (Hanks 2000: 135) إن: "الأنواع يمكن

تعريفها بالتقاليد والمثل الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، التي تدور وفقها الحوارات بين الناس بشكل لا يختلف عليه اثنان".

لذلك نقول إن الصدام الذي عرضنا له آنفاً ليس اختلافاً حول اختيار أفراد لأسلوب "صحيح" أو آخر "خاطئ" في الكتابة يقوم على الحقائق أو على الثقة المتبادلة بين طرفي الاتصال، بل هو اختلاف بين نوعين محليين للاتصال تصادف تلاقيهما في بيئة اتصال عالمية، فالنوع هو الوسيط الأهم بين ما هو عالمي وما هو محلي نظراً لارتباطه بغرض الاتصال العالمي من ناحية (انظر: Swales 1990) والفهم العميق للعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع المحلي من ناحية أخرى، كما أن ذلك النوع هو المكون الأساسي لنسيج حواراتنا. فلا عجب إذاً خلصنا في نهاية تحليلنا إلى أن النوع هو السبب الرئيس وراء مشكلة سوء فهم الآخر فيما يتم من اتصالات عالمية؛ وذلك لأننا نتعامل مع نوع الحوار الذي اعتدنا عليه وتربينا على سماعه في الحوارات العامة على أنه الشكل الطبيعي والعالمي بين البشر كافة (انظر: Fairclough 1992) ولا ندرك بذلك وجود فوارق بيننا وبين غيرنا من المجتمعات في نوع الحوار مما يؤدي إلى الصدام في بيئة الاتصال العالمي.

وبالطبع تحدث بعض حالات الصدام داخل كل نوع من أنواع الحدث الكلامي genre حين الاتصال المباشر وجهاً لوجه، إلا أن اللغة الإشارة دورها في فض بعض النزاعات وكشف غموض الرسالة المقصودة من التواصل الإشاري. أما على مستوى الفضاء الإلكتروني القائم على تنوع المعلومات والأساليب وارتباطها الشديد بنوع الحديث المتبع فالمشكلة أعوص، فلم يدرك أطراف الاتصال السابق أن الشفافية والوضوح التي يتسم بها الاتصال عبر الإنترنت قد يكون ذاته مصدر إحباطهم وتعثر عملية الاتصال، فقام كل طرف بقبول نوعهم الكلامي في اللغة الأجنبية التي

يتعلمونها ويتواصلون بها عبر الإنترنت (انظر: Thorne 1999, 2000b). لكن الأنواع الكلامية جزء من النسيج المادي والاقتصادي للمجتمعات، مما يشيع الخوف في نفوس بعضنا من أن يفرض من يمتلكون حواسيب شخصية وبريداً إلكترونياً نوعاً كلامياً جديداً على الآخرين بشكل عالمي، فيسود النوع الفردي غير المؤسسي القائم على الخبرات الشخصية والثقة المتبادلة على حساب النوع الأكاديمي الموضوعي القائم على نقل الحقائق، فتكمن الخطورة في أن يفقد من يقل تعاملهم مع الحاسب الآلي نوعهم الكلامي المميز لانتمائهم لمجتمع محلي وثقافة بعينها وليس لغتهم.

أما ما يخص تعليم اللغة الأجنبية فيرى كيرن (Kern 2000) أن للمعلم دوراً مفصلياً في استخدام المراسلة عبر الإنترنت لتعلم اللغة الأجنبية مع من أسماهم "أصدقاء لوحة المفاتيح" key-pal، حيث يفسر المعلم ما قد يصعب على الطلبة فهمه سواء من ناحية الأفكار أو الوعي الثقافي، ويقول كيرن Kern في هذا الصدد: "تتمثل مهمة المعلم الهامة في إدارة مناقشات التغذية الراجعة والمتابعة التي يتم من خلالها دراسة النصوص التي أرسلت عبر الإنترنت، ومن ثم يمكن استيعاب ما جاء بها داخل قاعة الدرس، أو من الردود التالية من المتحدثين الأصليين للغة محل الدراسة". ونحن نتفق مع كيرن Kern في قوله بأهمية دور المعلم في الاستفادة من المادة العلمية الخصبة المتاحة من خلال الاتصال مع المتحدثين الأصليين للغة عبر الإنترنت، وهي ما تسمى "لحظات التعلم" التي تشهد مناقشات الطلاب وجهاً لوجه. لكن ما يمكن تعلمه يعد أمراً معقداً في ضوء ما رأينا من صدام الأنواع الحوارية الذي عرضنا له آنفاً، فالمعلم في الماضي كان تجسيدا للمؤسسة الأكاديمية التي خولته مسؤولية التدريس، ومنحته الثقة في معارفه وخبراته الأكاديمية، وحددت نشاطه التعليمي بنظامها المحلي مما يضع تحدياً أمام المعلمين يتمثل في تأهيلهم لنقل الأنواع الكلامية المحلية إلى بيئات التعلم العالمية،

وكذلك إعداد الطلاب للتعامل مع أنشطة الاتصال العالمية التي تتطلب معارف أخرى غير كفاءة الاتصال المحلية.

خاتمة

تقدم التقنية العالمية الحديثة نمطاً من الاتصال يبدو للوهلة الأولى مناسباً، ومباشراً، وسريعاً، وموثوقاً به، خاصة فيما يتعلق بالاتصال بالمتحدثين الأصليين للغة الأجنبية وثقافتهم، ففي حالة متعلمي اللغة الأجنبية الأمريكيين، وهم مَنْ هم في استخدام الحاسب الآلي وأدوات الاتصال المتاحة عبر الإنترنت، يشجع استخدام الإنترنت لتعلم اللغة الفرنسية فكرة الاتصال بغرض بناء جسور الثقة المتبادلة، والتفاعل العالمي القائم على العدل، والمساواة، وتبادل الفرص، والأمل في مستقبل عالمي مشترك لكل شعوب الأرض، وليس مجرد نقل للمعلومات أو مناقشة لمعاني الكلمات والعبارات. لكن -كما رأينا- ليست تلك الطريقة التي رأى بها الطلاب الفرنسيون استخدام الإنترنت لتعلم اللغة الإنجليزية، فلم يدرك الطرفان الفرنسي والأمريكي أن الإنترنت كوسيلة اتصال عالمية تساعد على تفاقم مشكلة الصدام بين الأنواع الكلامية التواصلية المحددة بالتقاليد الاجتماعية والثقافية الخاصة بكل مجتمع والتي لن يحدث "فهم لحياة الآخر" دون المعرفة الكاملة والفهم العميق لها، ولذلك ستضيع فرصة إعادة النظر في النوع الكلامي الخاص بكل مجتمع.

إن العائق بين ما هو عالمي وما هو محلي هو النوع الكلامي الذي يعد الأساس الاجتماعي والتاريخي لحواراتنا وأفكارنا، وتتمايز به المجتمعات على صعيد الاتصال اللغوي، الأمر الذي يستدعي مزيداً من الاهتمام بالفهم العميق لهذا البعد الغائب عن أذهان الكثيرين في تدريس اللغة الأجنبية مفضياً لإعادة النظر فيما نقصده بكفاءة

الاتصال في عالم اليوم المنفتح على كافة الثقافات ، وكذلك إعادة التفكير فيما سيؤول إليه حال الأنشطة التواصلية التي تمد جسور الثقة بين المجتمعات.

ملاحظات

(١) هذا الجزء مقتبس في بعض جوانبه من كتاب كيرن (Kern 2000: 252-254) لذلك يجدر بنا توجيه الشكر إلى ريك Kern Rick على السماح لنا بالاعتباس منه.